

مدينة الحرّية عند الفارابي: مقارنة إشكاليّة

سالم العيادي

فهرس المحتويات:

2 مقدمة
4 1. مفارقات مدينة الأحرار
6 أ- مفارقة الرتبة
7 ب- مفارقة الاسم
8 ج- مفارقة اللاتطابق
8 د- مفارقة الهوية
9 2. تجليات الحرية
9 أ- مدينة الحرّية مدينة «لا- سياسيّة» A-politique
11 ب- مدينة الحرّية مدينةً متنوّعةً ثقافيًا Multiculturelle
12 ج- مدينة الحرّية مدينةً كسموبوليت Cosmopolite
13 د- مدينة الحرّية مادّة ممكنة للمدينة الفاضلة
15 خاتمة

«أجزاء المدينة ومراتب أجزائها يأتلف بعضها مع بعض وترتبط بالمحبَّة، وتتماسك وتبقى محفوظةً بالعدل وأفاعيل العدل»¹.
 «فالإنسانيَّة للنَّاس هي الرِّباط، فينبغي أن يتسالموا بالإنسانيَّة [...] فهذا هو الطَّبِيعِيُّ للإنسان. فأما الإنسانُ المغالِبُ فليس بما هو مغالِبٌ طبيعيًّا»².

نتناول في هذا المقال تصوُّرَ الفارابي لـ «مدينة الأحرار» كما ارتسمت ملامحها في كتاب السياسة المدنيَّة³. وإنَّه لمن المهمُّ أن نحلِّلَ وصفَ الفارابي لهذه المدينة حتَّى ينكشف لنا وجهٌ من وجوه فلسفته السِّياسيَّة. وقد قادنا هذا التحليلُ إلى بيان مختلف المفارقات المميِّزة لمدينة الحرِّية من ناحية، وبَسَطَ لنا السَّبيلَ إلى استشكالِ المعنى السِّياسيِّ للمدينة الفاضلة من ناحية أخرى.

وليس هدفنا في هذا العمل أن نحديد مختلف التأثيرات التي طبعت رؤية الفارابي السِّياسيَّة، ولا أن نكشف عن أسس فلسفته في الوجود المدني⁴. وإنَّما هدفنا أن نجتمع العناصر التي تمكِّننا من الاجابة عن هذه الأسئلة تحديداً: لِمَ تنتهي مدينة الحرِّية إلى المدن المضادَّة للمدينة الفاضلة؟ وإذا كان بالإمكان «فارابياً» أن تتشكَّل المدينة الفاضلة من مادَّة الاجتماع الحرِّ، فكيف يتحقَّق المرور

¹ الفارابي، فصول منتزعة. حقَّقه وقَدَّم له وعلَّق عليه، فوزي متري نجَّار. دار المشرق، بيروت، ط. 2. 1993. الفصل 61. ص. 70.

² الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة. قدَّمه وعلَّق عليه، ألبير نصري نادر. دار المشرق، بيروت، ط. 6. 1991. ص. 164-165.

³ الفارابي، السياسة المدنيَّة. منشورات سراس، تونس، 1994. انظر، ص. 91-95.

⁴ لسنا معنيِّين في هذا السياق بمسألة التأثير الإسكندرانيِّ والإسماعيليِّ في القراءة الفارابيَّة للمدونة السياسيَّة للحكيمين أفلاطون وأرسطو. فإثارة السؤال عن هذا التأثير يدخل في باب البحث عن الأسس الإلهيَّة والميتافيزيقيَّة والكوسمولوجيَّة للسياسة الفارابيَّة. ويمكن لهذا التَّأثير أن يكون موضوع دراسة تاريخيَّة مقارنة.

من الحرّية السياسيّة إلى الفضيلة السياسيّة⁵؟ وإلى أيّ مدى تمثّل المدينة الفاضلة عند المعلّم الثاني النموذج المثاليّ الأوحد والمطلق، والمتجاوز بالتالي لما يعرض للحرّية الإنسانيّة من جوازٍ وما يكتنفها من مخاطرة؟

لا تفترض الإجابة عن هذه الأسئلة أنّ يكون المشكلُ الفلسفيّ المتعلّق بالوجود المدنيّ مشكلاً محلولاً عند الفارابي حلاً تامّاً ونهائياً. بل إنّ هذا المشكل على العكس من ذلك، مشكلٌ مركّبٌ، وذلك لأنّه شديد الصلّة في المتن الفارابيّ برؤية ميتافيزيقيّة للعالم والإنسان وغائيّة الحياة السياسيّة. ولأجل ذلك، يجدر بنا بيان الطابع الإشكاليّ لهذه المدينة التي يصفها الفارابي مُفارقياً بكونها «مدينةً مُعجبةً»⁶. فبقدر ما يستبين ذلك الطابع الإشكاليّ يتعمّق النّظر في المقاربة الفارابيّة لمدينة الأحرار. ولا يكمن الطابع الإشكاليّ لمدينة الأحرار في التّوتر القائم بين البعد السياسيّ للحرّية وبعدها الإتيقيّ. وإنّما يكمن أساساً في الخلفيّة المعرفيّة التي تشكّل آراء أهل تلك المدينة وتحدّد أفعالهم. أليس من المدهش حقيقةً أن تكون مدينة الحرّية شديدة الارتباط – من حيث ماهيّتها ورُتبها – بالجهل؟

إنّ التباسَ المعنى الذي يحمله الفارابي على عبارة «مدينة الأحرار» والتّضادّ الذي يقيمه بينها وبين «المدينة الفاضلة» ينبغي أن يُعالجاً – في تقديرنا – من منظور خاصّ، هو المنظور الذي رسمته الفقرات الأخيرة من آراء أهل المدينة الفاضلة⁷، لا منظور تحصيل السعادة⁸. فكتاب الآراء يميّط اللّثام عن المضمون الموجب للأساس المعرفيّ الذي تستند إليه مدينة الحرّية، والذي حدّده كتاب

⁵ لا يجدر اعتبارُ التمييز بين الحرّية السياسيّة والفضيلة السياسيّة فصلاً بين سجلّين متعارضين. وإنّما يجدر حملُه على معنى التمييز بين نظام الوسائل الوسيطة ونظام الغاية القصوى. فليس الوجود المدنيّ من منظور غائيّ وجوداً سياسياً خالصاً، وإنّما هو يتمنّع ببعده إتيقيّ أساسيّ ويتنسب أيضاً إلى التّصوّر الميتافيزيقيّ للخير الأسمى.

⁶ السياسة المدنيّة. ص. 93.

⁷ الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة. يفتح الفارابي الفقرات الأخيرة من الآراء بجملة كاشفة عن أساس مدينة الأحرار من حيث هي مدينة جاهلة، يقول: «والمدنُ الجاهلة والضالّة إنّما تحدّث متى كانت الملة مبنية على بعض الآراء القديمة الفاسدة». ص. 151. ويدل مفهوم الملة إجمالاً على الدّين من حيث هو رؤية للعالم تمدّ الجمهور بتمثّلات تخييليّة مماثلة لما تمثّله الفلسفة بالمفاهيم: فالملة محاكية للفلسفة.

⁸ الفارابي، تحصيل السعادة. موجود في، الفارابي، الأعمال الفلسفيّة. الجزء الأوّل. تحقيق وتقديم وتعليق، جعفر آل ياسين. دار المناهل، بيروت، 1992. ص. 119-197.

السياسة المدنية على نحوٍ سالب بوصفه «جهلاً» أو «جاهليّة». أمّا في التّحصيل الفارابي مهتمّ جوهرياً بالأساس الأنطولوجيّ والإتيقيّ للسياسة الفاضلة بوصفها شرطاً للسعادة، دون أن يثير السُّؤال عن العلاقة بين المدينة الفاضلة والمدن المضادّة لها، جاهلةً كانت أو فاسقةً أو ضالّةً.

ونحن نعمل في هذا المقال على الدِّفاع عن الأطروحة التالية: إنّ مدينة الحرّية هي ذاتها المدينة الفاضلة، ولكن بمعنى الوجود بالقوّة والاستكمال. وهذا المعنى مُفارقٌ هو الآخر، لأنّه يتضمّن في الوقت ذاته التاريخَ والميتافيزيقا. فوجودُ المدينة الفاضلة في مدينة الأحرار وجوداً بالقوّة، يمنح الوجودَ المدنيّ معنى تاريخياً يفترضه اللاّ- تعيُنُ والإمكانُ المقارنُ لكلِّ «مادّة» حتّى وإن كانت مادّة الاجتماع البشريّ، في حين يوجّه الاستكمالُ (أن يصير الكائن إلى كماله الأخير) الوجودَ المدنيّ نحو وجهةٍ محدّدةٍ بمقتضى الصُّورة الجوهريّة المحمولة على معنى الغاية القصوى النهائيّة من حيث هي غايةٌ ميتافيزيقية. فإذا كانت الحرّيةُ «مادّةً»، فإنّ الفضيلةُ «صورةٌ» قابلة للانطباع في تلك المادّة: تلك هي العلاقة القائمة بين «مدينة الأحرار» بوصفها مادّةً تاريخيةً و«المدينة الفاضلة» بوصفها صورةً ميتافيزيقيةً.

1- مفارقاتُ مدينة الأحرار

مدينة الحرّية صنفٌ من أصناف المدن الجاهليّة: «والمدينة الجاهليّة هي التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم. إنّ أُرشدوا إليها فلم يفهموها ولم يعتقدوها. وإنّما عرفوا من الخيرات بعضَ هذه التي هي مظنونّة في الظاهر أنّها خيرات من التي تُظنُّ أنّها هي الغايات في الحياة...»⁹. فأهل المدن الجاهلة على العموم لا يعرفون الغاية القصوى للوجود الإنسانيّ: أي أنّهم يجهلون ما به يستكمل الإنسان وجوده حتّى يصير إلى كماله الأخير على المستويين النّظريّ (إدراك الحقيقة) والعمليّ (تحصيل السعادة). فالشيء الذي يجعل المدن الجاهليّة مضادّةً للمدينة الفاضلة هو الغياب التّام لـ«ميتافيزيقا» يتجاوز بها المدنيون غايات الحياة من صحّة ويسار ولذّة وكرامة... فهذه الغايات هي «مظنونٌ في الظاهر أنّها خيرات» بسبب كونها غافلةً غفلةً تامّةً عن الأفق المتسامي

⁹ آراء أهل المدينة الفاضلة. ص. 131.

للإنسانية الذي هو موضوع الميتافيزيقا من حيث هي فلسفة أولى مؤسّسة لمعماريّة العقل نظرياً (المعرفة/ العلم البرهاني اليقيني) ومؤسّسة لعمارة المدينة عملياً (السياسة والأخلاق/ الفضيلة والسعادة).

فالحريّة عند أهل مدينة الأحرار هي غاية هذه الحياة. وهي تُطلَب لذاتها بوصفها هدفاً نهائياً لا بوصفها توطئة لأجل خير أسمى يتجاوزها ويتعالى عنها. لذلك يقول الفارابي معرّفًا هذه المدينة: «والمدينة الجماعيّة هي التي قصد أهلها أن يكونوا أحرارًا، يعمل كلُّ واحدٍ منهم ما يشاء، لا يمنع هواه في شيءٍ أصلاً»¹⁰. ويقول أيضًا: «فأمّا المدينة الجماعيّة فهي المدينة التي كلُّ واحدٍ من أهلها مخلى لنفسه يعمل ما يشاء، وأهلها متساوون، وتكون سنّتهم أن لا فضل لإنسان على إنسان في شيءٍ أصلاً، ويكون أهلها أحرارًا يعملون ما شاؤوا، ولا يكون لأحدٍ على أحدٍ منهم ولا من غيرهم سلطانٌ إلا أن يعمل ما تزول به حرّيتهم»¹¹.

الحريّة هي إذن الغاية القصوى للمدينة الجماعيّة وهي لا تستند إلى أساسٍ ميتافيزيقيّ (العلم النظريّ) ولا تتحرّك في أفقٍ أخلاقيّ (السعادة بوصفها الخير الأسمى). غير أنّ الأمر في أن يكون كلُّ واحدٍ متروكًا لنفسه فيعمل ما يشاء «ولا يمنع هواه في شيءٍ أصلاً» ليس على النّمط الهيبيّ. وذلك لأنّ الهيبيّين بالطبع «ليسوا مدنيّين ولا تكون لهم اجتماعات مدنيّة أصلاً»، أمّا «أهل الجاهليّة فإنّهم مدنيّون»¹². كما أنّ إطلاق العنان للهوى في هذه المدينة لا ينبغي أن يُحمّل على معنى الانغماس في الملدّات الماديّة والشّهوات الحسيّة فتصير الحريّة لهوًا. ولا ينبغي أيضًا أن يُردّ الهوى إلى الحكم الأخلاقيّ فيصير فعلاً مردولاً. وذلك لأنّ هذا المعنى الشّهوانيّ للهوى المدان أخلاقيًا هو المعنى الذي ينطبق على مدينة الخسة والسقوط، وهي المدينة التي يكون مقصودُ أهلها «التّمتع باللذات» و«اللعب والهزل»، فتكون أنفسهم ذليلةً خادمةً للشّهوات¹³. أمّا حريّة الأحرار في المدينة الجماعيّة فتعني غياب الموانع السياسيّة وحياد السلطان بالنظر إلى ما يريده الفردُ وبهواه، وذلك

¹⁰ ن.م. ص. 133.

¹¹ السياسة المدنيّة. ص. 92.

¹² ن.م. ص. 79-80.

¹³ انظر، ن.م. ص. 80. ص. 94. ص. 96-97.

بصرف النَّظَر عن موضوع ذلك الهوى ومضمون تلك الإرادة. فالفرد «مخلّى لنفسه» وليس للسلطان عليه من وصاية في تقدير الخير والشرّ والتّمييز بين فضيلة ورذيلة. بل لا وجود لمرجعية معيارية داخل هذه المدينة.

ليست حرية الأحرار إذن حريةً بهيميةً ولا هي لعبٌ وهزلٌ. وإنّما هي من طبيعة مدنيّة تُحمّل على معنى غياب السُّلطة السياسيّة والأخلاق الاجتماعيّة التي تفرّض على الفرد مسبقاً نمط الحياة المقبول داخل المدينة. فحرية الفرد تتحرّك - بهذا المعنى - فيما وراء الخير والشرّ وخارج فضاء السُّؤال عن المشروعيّة والواجب، ما دامت تتعلّق بحياته الخاصّة. ونحن نعمل في هذا المقال على الكشف عن مفارقات الحرية من حيث هي حرية مدنيّة (اجتماع الأحرار)، لا من جهة كونها بهيمية (لا- مدنيّة)، ولا من جهة كونها لهواً ولعباً (اجتماع الخسة والسُّقوط). وسيتبيّن لنا أنّ الحرية السياسيّة تستند إلى رأيٍ عامٍّ مدنيٍّ، أي إلى موقفٍ مشتركٍ هو الذي يجعل تعايش الحريات أمراً ممكناً ومشروعاً. ففيم تمثّل المفارقات المدنيّة للحرية؟ وما هو مضمون الرّأي العامّ المدنيّ الذي يصفه الفارابي على نحو سالب بصفة «الجهل» (كتاب السياسة المدنيّة)، ويصفه على نحو موجب بصفة «الرّأي الفاسد» (كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة)؟ وبمّ يتميّز الرّأي المؤسّس للحرية (الديمقراطيّة) عن الرّأي المؤسّس للتّغلب (الاستبداد)؟ لا يمكن أن نجيب عن هذه الأسئلة دون الوقوف على مفارقات هذه «المدينة المُعجبة» كما يصفها الفارابي¹⁴. وقد اخترنا أن نجمع هذه المفارقات في أربعٍ أساسيّةٍ هي: مفارقة الرُّتبة ومفارقة الاسم ومفارقة اللّاء- تطابق ومفارقة الهوية.

أ- مفارقة الرُّتبة:

تنتمي مدينة الحرية إلى نوعٍ خاصٍّ من الاجتماع هو الاجتماعُ الجاهليُّ. وهو النّوع الأوّل من جنس السياسات المضادّة للسياسة الفاضلة¹⁵. والاجتماعُ الجاهليُّ هو الذي لا يعرف أهلُه السّعادة ولا خطرت ببالهم. ويعني عدم معرفة السّعادة عند الفارابي الغياب التّامّ للاهتمام الميتافيزيقيّ والقصد الأخلاقيّ. فالإي مدى تكون مدينة الحرية مدينةً جاهليّةً والحالُ أنّ ظهور الفلاسفة

¹⁴ انظر، ن.م. ص.93.

¹⁵ ويشتمل هذا الجنس من المدن المضادّة للمدينة الفاضلة على نوع ثانٍ هو المدينة الفاسقة ونوع ثالث هو المدينة الضّالة.

والخطباء والشُعراء أمرٌ ممكنٌ فيها؟ وما السَّببُ في احتلالها الرُّتبة الأخيرة في جدول المدن الجاهليَّة والحال أنَّ الطَّوائفَ النَّبيلةَ قد تسكنها والأفاضلَ قد يَحْدُثون فيها؟ ثمَّ هل أنَّ الجهلَ المُفسِّرَ لمنزلة هذه المدينة جهلٌ واحدٌ مشتركٌ بين كلِّ المدن الجاهليَّة كأن يكون الجهلُ الدِّيكتاتوريُّ مثلاً (مدينة التَّغْلُبِ والجبابرة) هو ذاته الجهلُ الدِّييمقراطيُّ (مدينة الحرِّيَّة)، أم أنَّ الجهلَ الدِّييمقراطيُّ متميِّزٌ - من جهة الرأْيِ المؤسَّس له - عن أنماط الجهلِ السِّياسيِّ الأخرى؟ لا تناغمَ - في تقديرنا - بين المنزلة الدُّنيا لمدينة الحرِّيَّة في سلَّمِ المدن الجاهليَّة وبين ما فيها من إمكانيِّ للخير والفضيلة والفلسفة.

ب- مفارقةُ الاسم:

ما نلاحظه في الفقرة التي يعدِّد فيها كتابُ السِّياسة المدنيَّة المدنَ الجاهليَّة، هو أنَّ النَّعتَ الذي به تُنعتُ المدنُ مشتقٌّ من الجذر ذاته الذي اشتُقَّت منه أوصافُ الاجتماعات: فالاجتماعُ الضَّروريُّ يعطي المدينة الضَّروريَّة واجتماعُ أهلِ النَّذالة يعطي المدينة النَّذلة والاجتماعُ الخسيسُ يعطي مدينةَ الخسَّة... أمَّا اجتماع الحرِّيَّة فهو يعطي «المدينة الجماعيَّة ومدينة الأحرار»¹⁶. فما معنى أن يفضي اجتماع الحرِّيَّة إلى المدينة الجماعيَّة¹⁷؟ لماذا تغيَّر التَّحديدُ من الحرِّيَّة إلى الجماعة؟ هل يمكن لاجتماعٍ فردانيٍّ من جهة الغايات والقيم (الحرِّيَّة الفرديَّة) أن يكون مؤسسًا لمدينة جماعيَّة

¹⁶ ن.م. ص. 78.

¹⁷ استعمل الفارابي كلمة جماعيَّة المشتقة من كلمة الجماعة لأنَّه لم يجد مقابلاً عربيًّا للكلمة الإغريقيَّة ديموس (Démós). ولم يكن في مقدوره استعمال كلمة جمهور لأنَّ هذه الكلمة محمَّلة عنده بدلالة معرفيَّة لا بدلالة سياسيَّة. وثمة من المعطيات ما يؤكِّد أنَّ المدينة الجماعيَّة هي المدينة الدِّييمقراطيَّة كما صيغت في الفلسفة الإغريقيَّة. يقول الفارابي: «ويكون من يرأسهم إمَّا يرأسهم بإرادة المرؤوسين». ن.م. ص. 92. فإرادة المرؤوسين تعني إرادة الشَّعب أو الجماعة أو الجمهور... ومثال «ثوب الوشي» الَّذي يستعمله الفارابي في هذا الكتاب لوصف هذه المدينة (انظر، ص. 93) يكاد يكون استعادة حرفيَّة لفقرة من محاوره الجمهوريَّة لأفلاطون، الكتاب الثَّامن. ثمَّ إنَّ المبدأ المحدِّد لمنزلة هذه المدينة عند الفارابي مبدأ مزدوج أفلاطونيٌّ - أرسطيٌّ في آن. فهذا المبدأ هو الجهل (كما أقرَّ بذلك أفلاطون) والحرِّيَّة (كما أقرَّ بذلك أرسطو). فالجهل عند أفلاطون هو الخاصيَّة المحدِّدة لمنزلة الجمهور، وبذلك تكون الدِّييمقراطيَّة مدينة الجمهرة الجاهلة. وأساس الدِّييمقراطيَّة عند أرسطو هو الحرِّيَّة بصرف النَّظر عن المعيارين الأفلاطونيَّين المحدِّدين للجمهرة الجاهلة وهما الفقر والأغليبيَّة. أنظر في ذلك،

(Platon, *La République*. VIII) / (Aristote, *Les Politiques*. VI.2-

من جهة النّظام السّياسيِّ؟ لا تناغم في نظرنا بين صفة «الجماعيّة» المحمّولة على المدينة وصفة «الحرّيّة» المحمّولة على الاجتماع.

ج- مفارقة اللّاء- تطابق:

واقع هذه المدينة غير مطابق لفكرتها. بل إنّ ما يقتضيه اجتماع الحرّيّة من جهة الواقع العينيّ يكاد يكون مناقضاً لما يقتضيه من جهة الحقّ. ففكرة الحرّيّة تفترض ألاّ يكون لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ في شيءٍ أصلاً وألاّ يكون فهم «في الحقيقة لا رئيس ولا مرؤوس»¹⁸. ولكن واقع المدينة يفترض وجودَ رئيسٍ ويفترض أيضاً وجودَ عاملٍ ممّا يُرجّح كقّة الرّئاسة إلى أحدٍ دون الآخرين. وهذا العاملُ المرجّح هو في مدينة الحرّيّة عاملٌ اقتصاديٌّ بالأساس: فالرّئاسات تُشترى بالمال. وهكذا ليس صحيحاً أن ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ: فالمال وجهٌ من وجوه التّفاضل وهو سببٌ مباشر في التّفاوت. فكيف يكون أهل هذه المدينة متساوين؟¹⁹.

د- مفارقة الهويّة:

ليس لاجتماع الحرّيّة هويّة. فهو مثل «ثوب الوشي الذي فيه ألوان التّمثيل وألوان الأصباغ»²⁰. ومردّد هذا الأمر إلى أنّ الحرّيّة لا تُعرّف المدينة تعريفاً موجّباً وإنّما تُعرّفها بالسلب. فمدينة الحرّيّة ليست ولا مدينةً من المدن ذات الهويّة السّياسيّة والثّقافيّة الواضحة والمتميّزة. فهي خليطٌ من الأجزاء اللّاء- متمايّزة «فتحصل هذه المدينة مدناً كثيرةً لا متميّزة بعضها عن بعض، لكن داخله بعضها في بعض، متفرّقة أجزاء بعضها من خلال أجزاء البعض. لا يتميّز الغريبُ بها من القاطن»²¹.

¹⁸ الفارابي، السّياسة المدنيّة. ص. 92.

¹⁹ انظر، ن.م. ص. 94. الأنسب في نظرنا أن نسمّي مدينة الأحرار الفارابيّة مدينةً ليبراليّةً من أن نسمّيها مدينةً ديمقراطيّةً. وذلك ليس فقط لأولوية العامل الاقتصاديّ التّحرّريّ في تحديد السّلطة، وإنّما أيضاً لطبيعة الحرّيّة في هذه المدينة: فهي حرّيّة «ليبراليّة» وليست حرّيّة «اجتماعيّة».

²⁰ ن.م. ص. 93.

²¹ ن.م. ص. 94.

صحيح أن الفارابي يقرُّ بأنَّ السِّياسات الجاهليَّة تُوجد في الواقع ممتزجةً غيرَ خالصةٍ ومركَّبةً غيرَ بسيطةٍ. ف«عسيرٌ وبعيدٌ أن تلزم أفعال رئيس من رؤساء الجاهليَّة صنفاً واحداً من أصناف السِّياسات الجاهليَّة خالصاً لا يشوبه شيء من غير ذلك الصِّنف ... وإن كان الموجود من سياسات الجاهلين كثيراً سياسات مركَّبة»²². غير أن الامتزاج والتَّركيب في مدينة الحرِّيَّة يتعلَّق بماهيَّتها ذاتها وفكرتها رأساً. فمِنْ طبيعة هذه المدينة ألا تكون لها طبيعة، وأن تقاوم كلَّ صورةٍ سياسيَّةٍ قد يتشكَّل بمقتضاها الاجتماعُ المدنيُّ الحرُّ. لذلك قد يغتال أهلُ هذه المدينة (ذوو السُّلطة ممَّن يمتلك المال) الحاكمَ الذي يسوسهم بمرجعِيَّةٍ في الحكم هُوَويَّةٍ. فمفارقة الحرِّيَّة تتمثَّل إذن في أن هذه المدينة تجعل من هويَّتها الخاصَّة (الحرِّيَّة) نفيًا لكلِّ هويَّةٍ: فهي مادَّةٌ مدنيَّةٌ عصيَّةٌ على الصورة الميتافيزيقيَّة، وإن كانت أقرب المدن الجاهليَّة من إمكانيَّة الانطباع بصورة «المدينة الفاضلة». وبين ذلك الاستعصاء وهذا الإمكان تكمن مفارقاتها. فعلى أيِّ نحوٍ تتجلَّى الحرِّيَّة سياسيًّا؟

2- تجلِّيات الحرِّيَّة

لمدينة الحرِّيَّة خاصِّيَّات أساسيَّة عامَّة تشترك فيها مع بقيَّة المدن الجاهليَّة. ولها دون ذلك ما به تنفرد وتختصّ. وتتجلَّى الحرِّيَّة داخل هذه المدينة على أنحاء مختلفة. والملاحظ في نصوص الفارابي أنَّها لا تعرض تلك التَّجَلِّيات عرضاً منهجيًّا واضحاً وإنما تكتفي بالإشارة إليها وصفيًّا دون تحليلٍ مستفيضٍ أو ترتيبٍ نسقيٍّ. وقد عملنا على وضع ترتيبٍ يجعل من التَّجَلِّيات اللَّاحق نتيجةً مستنبطة من التَّجَلِّيات السَّابِق، ويجعل من مظهرات الحرِّيَّة تشكُّلات مترابطة. وذلك على النَّحو التَّالي:

أ- مدينة الحرِّيَّة مدينة «لا- سياسيَّة» A-politique

سياسة الحرِّيَّة سياسة «لا- سياسيَّة»، وتكون الرِّئاسة فيها اعتباريَّةً أيضاً. فلا شيء في مدينة الأحرار يبرِّر ادِّعاء الرِّئاسة، ولا شيء فيها يشرِّع السُّلطة. بل إنَّ العوامل التي تؤدِّي إلى الحكم هي إمَّا عوامل لا- سياسيَّة أو محايدة من النَّاحية السِّياسيَّة. ويترتَّب عن هذا الطَّابع اللَّا- سياسيِّ لهذه

²² الفارابي، فصول منتزعة. ص. 92- 93.

المدينة عجزُ الحاكم عجزًا تامًا عن التَّنظيمِ التَّراتبيِّ (أي عن فرض صورة للوجودِ المدنيِّ تترتب الوظائفُ بمقتضاها) وعن التَّوجيهِ الغائيِّ (أي عن فرض غاية قصوى واحدة ومشاركة تنحو كلُّ الوظائفِ نحوها)²³. يقول الفارابي: «وتكون الرِّئاسات بأيِّ شيءٍ اتَّفَق من سائر تلك الأشياء التي ذكرناها، ويكون جمهورها الذين ليست لهم ما للرؤساء مسلَّطين على أولئك الذين يُقال فيهم إنهم رؤساءهم، ويكون من يرأسهم إنَّما يرأسهم بإرادة المرؤوسين، ويكون رؤساءهم على هوى المرؤوسين. وإذا استقصي أمرهم لم يكن فيهم في الحقيقة لا رئيس ولا مرؤوس»²⁴. «... فلذلك صارت هذه الرِّئاسات (الجاهليَّة) تُشترى بالمال، وخاصَّة الرِّئاسات التي تكون في المدينة الجماعيَّة. فإنَّه ليس أحدٌ هناك أولى بالرِّئاسة من أحد. فإنَّما أن يكون أهلها متطوِّلين بذلك عليه، وإنَّما أن يكون قد أخذوا منه أموالاً أو عوضاً آخر»²⁵.

إنَّ الرئيسَ الذي لا فضل له على مرؤوسيه فيكون على هواهم ويشترى الرِّئاسة بالمال، عاجزٌ في حقيقة الأمر عن ممارسةِ فنِّ التَّدبيرِ المدنيِّ بما هو فنُّ التَّنظيمِ التَّراتبيِّ والتَّوجيهِ الغائيِّ، أي أنَّه عاجزٌ عن السياسةِ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا المفهوم. لذلك يقول الفارابي: «والرئيسُ الفاضلُ عندهم هو الذي يقدر على جودة الرُّويَّة وحسن الاحتيال فيما يُنيلهم شهواتهم وأهواءهم على اختلافها وتفنُّنها، ويحفظهم على ذلك من أعدائهم، ولا يرزأ من أموالهم شيئاً بل يقتصر على الضَّروريِّ من قوته فقط. وإنَّما الفاضل الذي هو بالحقيقة فاضل وهو الذي إذا رأسهم قدر أفعالهم وسددها نحو السَّعادة، فهم لا يُرئسونه، وإذا اتَّفَق أن رأسهم فهو بعدُ إمَّا مخلوعٌ وإمَّا مقتولٌ وإمَّا مضطربُ الرِّئاسة منازعٌ فيها»²⁶.

هكذا إذن لا تقبل مدينةُ الحرِّيَّة لا العلةُ الصُّوريَّة (الرُّتب والوظائف) ولا العلةُ الغائيَّة (السَّعادة بوصفها الخيرُ الأقصى والكمالُ الأخير). وهذا ما يفسِّر الغياب التَّام لمفهوم «التَّعاون» في تحديد

²³ يقول ابن رشد: «والاجتماع في هذه المدن (الجماعيَّة) ضرورةٌ، إمَّا هو اجتماعٌ بالعرض، لأنَّهم لم يكونوا ليقتصدوا باجتماعهم غرضاً واحداً يجمعهم. والرِّئاسة فيها إمَّا تكون باتِّفاق (= البخت، الخطأ)». **الضروريِّ في السِّياسة**. نقله من العربيَّة إلى العربيَّة أحمد شحلان. مدخل ومقدمة تحليليَّة وشروح، محمَّد عابد الجابري. مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، ط. 1. 1998. فقرة 275. ص. 175.

²⁴ الفارابي، **السِّياسة المدنيَّة**. ص. 92. وانظر أيضاً الفقرات التالية لهذا الشاهد، ص. 92-94.

²⁵ ن.م. ص. 94.

²⁶ ن.م. ص. 95.

التَّجَلِّيَّاتِ الأَسَاسِيَّةِ لمَدِينَةِ الحَرِّيَّةِ، وَذَلِكَ عَلَى خِلاَفِ كُلِّ المَدَنِ الأُخْرَى الَّتِي يَتَعَاوَنُ أَهْلُهَا عَلَى بَلُوغِ غَايَةِ مُشْتَرَكَةٍ، مَهْمَا كَانَتْ تِلْكَ الغَايَةُ تُغْلِبُ أَوْ يَسَارًا أَوْ لَدَّةً أَوْ فَضِيلَةً...

ب- مَدِينَةُ الحَرِّيَّةِ مَدِينَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ ثِقَافِيًّا Multiculturelle

يَقُولُ الفَارَابِيُّ: «... فَتَحَدَّثُ فِيهِمْ أَخْلَاقٌ كَثِيرَةٌ وَهَمَمٌ كَثِيرَةٌ وَشَهَوَاتٌ كَثِيرَةٌ وَالتَّذَادُ بِأَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. وَيَكُونُ أَهْلُهَا طَوَائِفَ كَثِيرَةً مُتَشَابِهَةً وَمُتَبَايِنَةً لَا تُحْصَى كَثْرَةً. فَتَجْتَمِعُ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي تِلْكَ المَدَنِ كُلِّهَا الخَسِيسِ مِنْهَا وَالشَّرِيفِ»²⁷. وَيَقُولُ أَيْضًا: «وَلِهَذَا صَارَتْ هَذِهِ أَكْثَرُ المَدَنِ الجَاهِلِيَّةِ خَيْرًا وَشَرًّا مَعًا»²⁸. يَبْدُو تَسَاكُنُ الطَّوَائِفِ (بوصفه نَتِيجَةً) فِي تَنَاقُضٍ تَامٍ مَعَ الحَرِّيَّةِ (بوصفها سَبَبًا). وَذَلِكَ لِأَنَّ مَفْهُومَ الطَّائِفَةِ مَفْهُومٌ جَمْعَانِيٌّ بَيْنَمَا مَفْهُومُ الحَرِّيَّةِ مَفْهُومٌ فَرْدَانِيٌّ. فَكَيْفَ تَتَنَاقَمُ حَيَاةُ الفَرْدِ الحَرِّ مَعَ حَيَاةِ الطَّوَائِفِ؟ بَلْ كَيْفَ تُؤَدِّي تِلْكَ الحَرِّيَّةُ بِوَصْفِهَا مُنْطَلِقًا إِلَى تِلْكَ النَتِيجَةِ المَتَمَثِّلَةِ فِي تَسَاكُنِ جَمَاعَاتٍ ثِقَافِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ وَمُتَبَايِنَةٍ خَسِيسَةٍ وَشَرِيفَةٍ؟

لَا تُحَدِّدُ الطَّائِفَةُ قَبْلِيًّا اخْتِيَارَ الفَرْدِ. وَإِنَّمَا اخْتِيَارَاتُ الأَفْرَادِ الأَحْرَارِ هِيَ الَّتِي تُؤَدِّي بَعْدِيًّا إِلَى التَّلَاقِ فِي أَنْمَاطٍ مِنَ الحَيَاةِ مُشْتَرَكَةٍ. فَلَيْسَ مَفْهُومُ الطَّائِفَةِ فِي تَقْدِيرِنَا دَالًّا دَاخِلَ مَدِينَةِ الحَرِّيَّةِ عَلَى وَحْدَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ عَضْوِيَّةٍ وَلَا هُوَ دَالٌّ أَيْضًا عَلَى وَحْدَاتٍ عَقَائِدِيَّةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ دَالٌّ عَلَى أَنْمَاطِ حَيَاةٍ، أَيْ عَلَى «سَيْرٍ» بِحَسَبِ عِبَارَةِ الفَارَابِيِّ. فَأَنْمَاطُ الحَيَاةِ الَّتِي قَدْ يَجْتَمِعُ حَوْلَهَا الأَفْرَادُ وَيَشْتَرِكُونَ فِيهَا لَا تَدُلُّ عَلَى مَرَاتِبِ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَلَا عَلَى وَظَائِفِ مَلِيَّةٍ وَلَا عَلَى مَرَجَعِيَّاتٍ لِلْحُكْمِ، وَإِنَّمَا هِيَ تَمْظَهَرَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِلْحَرِّيَّةِ. وَالأَمْرُ المُحَدِّدُ لِأَنْمَاطِ الحَيَاةِ هَذِهِ إِنَّمَا هُوَ «الهُوَى» وَأَنْ يَكُونَ الفَرْدُ «مُخْلِئًا لِنَفْسِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». وَلَمَّا كَانَ هُوَى الأَحْرَارِ مِنْ طَبِيعَةِ مَدْنِيَّةٍ وَلَيْسَ هَيْمِيًّا، وَحَيْثُ أَنَّهُ غَيْرُ دَالٍّ عَلَى الخَسَّةِ وَالسُّقُوطِ ضَرُورَةً، فَإِنَّ تَمْظَهَرَاتِ الحَرِّيَّةِ هِيَ إِذَنْ تَعْبِيرَاتٌ ثِقَافِيَّةٌ عَنِ الفَرْدَانِيَّةِ فِي طَابَعِهَا الجَذْرِيِّ. وَفِي ذَلِكَ تَكْمُنُ الرُّؤْيُ الثَّقَافِيَّةُ المُطْلَقَةُ المُمَيَّزَةُ لِهَذِهِ المَدِينَةِ عَلَى عَكْسِ الاستَبْدَادِ وَالتَّغْلِبِ الَّذِي

²⁷ ن.م. ص. 92.

²⁸ ن.م. ص. 94.

هو مستغرقٌ في رؤيةٍ طبيعائيّةٍ مطلقةٍ كما يشير إلى ذلك الفارابي في الفقرات الأخيرة من آراء أهل المدينة الفاضلة.

ج- مدينة الحرّية مدينة كسمبوليت Cosmopolite

يقول الفارابي: «وتكون هذه المدينة من مدنهم (الجاهليّة) هي المدينة المُعجبة والمدينة السّعيدة. وتكون من ظاهر الأمر مثل ثوبِ الوُشيّ الذي فيه ألوان التّمثيل وألوان الأصباغ. وتكون محبوبَةً ومحبوبة السّكنى بها ... فتتزع الأممُ إليها فيسكنونها فتعظم عظمًا بلا تقدير ويتوالد فيها الناس من كلّ جيلٍ وبكلّ ضرب من ضروب الرّواج والتّكاح. ويحدث فيها أولادٌ مختلفي الفطر جدًّا ومختلفي التّربية والنّشوء جدًّا. فتحصل هذه المدينة مدناً كثيرة لا متميّزة بعضها عن بعض لكن داخلة بعضها في بعض، متفرّقة أجزاء بعضها من خلال أجزاء البعض، لا يتميّز الغريب بها من القاطن، وتجتمع فيها الأهواء والسّير كلّها»²⁹.

نلاحظ من خلال هذا الشّاهد كيف تجتمع الأمم والمدن في مدينة الحرّية وكيف تصير هذه المدينة بحكم ذلك الاجتماع مدناً كثيرةً، أي كيف تصير مدينة كسمبوليت. فكلُّ فردٍ يمكن أن يسكن هذه المدينة وذلك بصرف النّظر عن نسبه ومنشئه، ولا تمايز في هذه المدينة بين القاطن والغريب. بل إنّ اختلاط الأمم في مدينة الحرّية يفترض انحلال تلك الأمم (اللاّ- تمايز/ الاختلاط/ تفرّق الأجزاء) لصالح الفرد. وهذا ما يفسّر إمكانيّة ظهور التّعابير الفردانيّة الجذريّة من فلسفةٍ وخطابةٍ وشعرٍ، إذ يقول الفارابي: «فلذلك ليس يمتنع إذا تمادى الزّمان بها أن ينشأ فيها الأفاضل، فيتّفق فيها وجود الحكماء والخطباء والشّعراء في كلّ ضربٍ من الأمور»³⁰.

²⁹ ن.م. ص. 93-94.

³⁰ ن.م. ص. 94.

د- مدينة الحرّية مادّة ممكنة للمدينة الفاضلة

يقول الفارابي بعد إقراره بإمكانية ظهور الأفاضل في مدينة الأحرار: «ويمكن أن يُلتَقَطَ منها أجزاء للمدينة الفاضلة، ولهذا صارت هذه أكثر المدن الجاهليّة خيراً وشرّاً معاً»³¹. ويقول بعد تأكّيده على أنّ أهل المدن الجاهليّة يأبون رئاسة الأفاضل وينكرونها: «إلّا أنّ إنشاء المدن الفاضلة ورئاسة الأفاضل يكون من المدن الضّروريّة ومن المدن الجماعيّة من بين مدنهاً أسهل»³².

ما نلاحظه في هذين الشّاهدين هو أنّ وجود مدينة الحرّية (الديمقراطيّة الليبراليّة) في أدنى سلّم المدن الجاهليّة لا يعني أنّها أسوأ المدن كما كان الأمر عند أفلاطون، بل هو يعني عند الفارابي أنّها المدينة الواصلة بين أفقين سياسيّين متضادّين، هما أفق المدن الجاهليّة وأفق المدينة الفاضلة. وهذا يعني أيضاً أنّ الاستبداد ليس هو مصير الحرّية ضرورةً. وعلى كلّ حالٍ فإنّ أسوأ الأنظمة عند الفارابي هو نظام المدينة التّغليبيّة (الاستبداد)³³. والمدينة الجاهليّة التي قد تقود إلى الاستبداد إنّما هي في نظره مدينة الكرامة لا المدينة الديمقراطيّة، وذلك بالرّغم من أنّ المدينة الكراميّة هي في نظره من أكثر المدن شبيهاً بالمدينة الفاضلة³⁴. فالمدن التي هي مادّة ممكنة للمدينة الفاضلة هي إمّا مدينة

³¹ ن.م. ص. 94.

³² ن.م. ص. 95.

³³ انظر في ذلك، فصول منتزعة. الفصل 93، ص. 93-95.

³⁴ انظر وصف الفارابي للمدينة الكراميّة، السّياسة المدنيّة. ص. 80-85. ينهي الفارابي هذا الوصف قائلاً: «إلّا أنّ الأمر في محبة الكرامة إذا أفرط فيها جدّاً صارت مدينة الجبارين وكانت حرّية أن تنتقل فتصير مدينة التّغلب». ومباشرة بعد هذا القول يمرّ الفارابي إلى مدينة التّغلب. يقول الفارابي مؤكّداً على الشّبه بين مدينة الكرامة والمدينة الفاضلة: «فتكون هذه المدينة لأجل هذه الأشياء مشبّهة للمدينة الفاضلة وخاصّة إذا كانت الكرامات ومراتب التّاس من الكرامات لأجل الأنفع فالأنفع لمن سواه إمّا من اليسار أو من اللّذات أو من شيء آخر ممّا يهواه الطّالب للمنافع. وهذه المدينة هي خير مدن أهل الجاهليّة...». ن.م. ص. 85.

الضَّرورة (الحدُّ الأدنى من الثَّقافة) أو مدينة الحرِّيَّة (الحدُّ الأقصى من الثَّقافة)³⁵. أمَّا المدن الواقعة بين هذين الحدين فلا تصلح لأن تكون مادَّة للمدينة الفاضلة.

إنَّ مدينة الحرِّيَّة هي أفضلُ المدن الجاهليَّة وأخسُّها في الوقت ذاته، وهي أكثرُها خيرًا وشرًّا معًا. ولا يمكن أن يجتمع النقيضان في شيءٍ مَّا على سبيل الوجود بالفعل، وإنَّما على سبيل الوجود بالقوَّة³⁶. فهذه المدينة هي بالقوَّة الأفضل والأخسُّ والخيرُ والشرُّ. فهي إذن في منزلة المادَّة أو الهيولى المحرومة من التَّعينِ الصُّوريِّ. وهي قد تصير إلى إحدى الإمكانيتين فتكون الأخسُّ وقد تصير إلى الإمكانية المقابلة فتكون الأفضل. والفارابي يرجِّح الفرضية الثانية. وهكذا يمكن القول إنَّ الحرِّيَّة مادَّة الاجتماع المدنيِّ ولا يمكن أن تكون صورته. وهذه المادَّة هي مادَّة ممكنة للمدينة الفاضلة. فما الذي يجعل من هذه المدينة مجرد مادَّة قابلةٍ من حيث الإمكان للنقيضين (الأفضل والأخسُّ/ الخير والشرِّ)؟ وما الذي يجعل تشكيل المدينة الفاضلة من مادَّة الحرِّيَّة أمكنَ وأسهلَ من تشكيلها من غيرها من الموادِّ (الكرامة واليسار والتَّغلب...)?

تقتضي الإجابة عن هذين السُّؤالين المرورَ إلى البحث في آراء أهل مدينة الحرِّيَّة المطبوعة بطابع «الثَّقافية» على النقيض من آراء أهل مدينة التَّغلب المطبوعة بطابع «طبيعيِّ» جليِّ كما بيَّن الفارابي ذلك في نهاية آراء أهل المدينة الفاضلة. وإنَّ السِّمة الأساسيَّة لهذه الثَّقافية (الديمقراطية الليبرالية) هي الرِّبِّيَّة العدمية من جهةٍ ما هي موقفٌ مليٌّ. بأيِّ معنى تكون الحرِّيَّة ملَّة؟

³⁵ اخترتُ عبارة الثَّقافية (Culturalisme) للدلالة على ما هو مناقض للطبيعية (Naturalisme) ولم اختر عبارات التَّعاقدية والمواضعة والوضعية. وذلك لأنَّ هذه العبارات لا تفي بالمقصود حين يتعلَّق الأمر بالفقرات الأخيرة من الآراء. والسِّمة البارزة لهذه الرُّؤية الثَّقافية هي الموقف الجذريِّ الَّذي يتجاوز السُّفسطائية نحو الرِّبِّيَّة (Scepticism) والعدمية (Nihilisme).

³⁶ يقول ابن رشد: «وعن هذه المدينة تنشأ المدينة الفاضلة وغيرها من أنواع المدن. لأنَّها موجودةٌ فيها بالقوَّة... ولذلك ينبغي للفلاسفة كما قال أفلاطون أن يستعدَّوا لمثل هذه المدن (الجماعية) وأن يختاروا منها أفضل الأنواع الموافقة للجماعة الفاضلة حتَّى ينشئوها فيها». الضَّروريِّ في السياسة. (مصدر مذكور سابقاً). فقرة 319. ص. 190.

خاتمة

مكّنتنا تحليل مفهوم «مدينة الأحرار» من اكتشاف بُعْدٍ جديدٍ من أبعاد المدينة الفاضلة الفارابيّة ظلّ مغموراً: فالمدينة الفاضلة «صورة» تكون مدينة الحرّية «مادّة» ممكنة لها. وحقيق لهذا البُعد المستكشف أن يثير انتباهنا إلى أنّ المدينة الفاضلة ليست نموذجاً ميتافيزيقياً متجاوزاً لعرضيّة الحرّية الإنسانيّة، ولا هي مجرد «يوطوبيا» متعالية عن مخاطرات التّاريخ. فالصورة الفاضلة لا تُعَدُّ المادّة الحرّة ولا تلغيها.

ولذلك ينبغي أن ننبيه أيضاً على أنّ المدينة الفاضلة عند الفارابي هي المدينة الوحيدة التي تقبل بظهور ضديدها بين ظهرانيها ووجود أعدائها داخلها، وذلك على خلاف كلّ المدن الأخرى. والأمر يتعلّق هنا بـ«النّوابت» الذين من داخل هذه المدينة يعارضونها معارضة جذريّة³⁷.

مدينة «الملك الحقّ» هي أيضاً المدينة الوحيدة التي تقبل التغيّر في مجال الرّأي ومجال العمل، وهي الوحيدة التي تمكّن من تأسيس علم الكلام والفقّه³⁸، وذلك على خلاف كلّ المدن الأخرى. فالمدينة الفاضلة هي إذن استكمالاً لمدينة الحرّية، أي هي تصويبٌ للحرّية نحو كمالها الخاصّ بفضل «النواميس» التي تتجاوز في الوقت نفسه طبيعانيّة «الآراء القديمة» وعدميتها.

³⁷ انظر، الفارابي، السياسة المدنيّة. ص. 98-103. حيث يحدّد الفارابي معنى «النّابته» ويضع جدولاً تصنيفياً للنّوابت الذين من الممكن ظهورهم في المدينة الفاضلة كـ«ضدّ» لها.

³⁸ انظر في ذلك، الفارابي، كتاب الملّة. تحقيق وتقديم وتعليق، محسن مهدي. دار المشرق، بيروت، ط.2. 1991. ص. 124-